

يتجنب أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه . وقال أبو هاشم الزاهد : خلق الله الداء والدواء ، فالداء الدنيا ، والدواء تركها *

﴿ فصل منه ﴾

حضر بعض الرؤساء صلاة الجمعة وبه مرض لا يحتمل معه تطويل الخطبة ، فصعد الخطيب المنبر . فقال : الحمد لله رب العالمين ، وصلواته على أشرف الأنبياء والمرسلين ، أما بعد : فإن الدنيا دار ممر ، والآخرة دار مقر ، فخذوا لمقركم من ممركم ، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم ، وأخرجوا الدنيا من قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم * فما أبلغ هذا الخطبة وأفصحها ، وأوجزها ، فعمر الدنيا والله قصير ، وأغنى غنى فيها فقير ، وكأني بك في عرصة (١) الموت وقد استنشقت ريح الغربة قبل الرحيل ، ورأيت أثر اليتيم في الولد قبل الفراق ، فيتقظ إذن من رقدة الغفلة ، وانتبه من السكر ، وأقلع حب الدنيا من قلبك ، فإن العبد إذا غمض عينه وتولى ، تمى الاقاله فقل كلاً . قال أبو عمران الجوني : مر سليمان بن داود عليهما السلام في موكبه ، والطير تظله ، والجن والانس عن يمينه وشماله ، قال فر عابد من عباد بني اسرائيل فقال : والله يا ابن داود لقد أنك الله ملكاً عظيماً !! قال : فسمع سليمان كلمته فقال : تسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أعطى ابن داود ، ما أعطى ابن داود يذهب ، والتسبيحة تبقى *

﴿ فصل ﴾

من بذل وسعه في التفكير التام ، علم أن هذه الدار رحلة ، فجمع للسفر رحله ، ويعلم أن مبدأ السفر من ظهور الآباء الى بطون الأمهات ، ثم الى الدنيا ، ثم الى القبر ، ثم الى الحشر ، ثم الى دار الاقامة الابدية ، فدار الاقامة هي دار السلام من

جميع الآفات ، وهي دار الخلود ، والعدو سبحانه الى دار الدنيا ، فنجاهد في فكاك
أمرنا ، ثم في حث السير الى الوصول الى دارنا الأولى ، وفي مثل هذا قيل :

ففى على جنات عدن فلها منازلك الأولى وفيها الخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترى نعود الى أوطاننا ونسلم
وليعلم أن مقدار السير في الدنيا يسير يقطع بالأنفاس ، ويسير بالإنسان سير
السفينة لا بحس بسيرها وهو جالس فيها ، كما قيل :

إنما هذه الحياة متاع فالغوى الشقى من يصطفها
مامضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

ولا بدله في سفره من زاد ، ولا زاد الى الآخرة الا التقوى ، فلا بد من
تعب الشخص والتصبر على مرارة التقوى ، لئلا يقول وقت السير : أرجعون
، فيقال : كلا . فلينتبه الغافل من كسل مسيره فان الله تعالى يربه في قطع مسافة
سفره آيات يرسلها تخويفا لعباده ، لئلا يميلوا عن طريقهم المستقيم ، ونهجهم
القويم ، فمن مالت به راحلته عن طريق الاستقامة ، فرأى ما يخاف منه ، فليرغب
الى الله بالرجوع اليه عما ارتكبه من الكسل (١) فيتوب من مصيئته ، ويبكى من
قسوته ، فاذا انتبه من رقدة كسله ، علم أن الدنيا دار غرور طبع على كدر .
كما روى ابن أبي الدنيا قال : أنشدني الحسن بن السكن :

حياتك بالهم مقرونة فما تقطع العيش الا بهم
لذا ذات دنياك مسحومة فما تأكل الشهد الا بسم
إذا تم أمر بدا نقصه توقع زوالا إذا قيل تم
(وكما قيل في المعنى)

حكم المنية في البرية جار ما هذه الدنيا بدار قرار

بينما يرى الانسان فيها مخبراً حتى يرى خيراً من الأخبار
طبعته على كدر وأنت تريد لها صفوا من الأقداء والأكدار

قال بعض السلف : أحذروا دار الدنيا ، فانها أسحر من هاروت وماروت ،
فانهما يفرقان بين المرء وزوجه ، والدنيا تفرق بين العبد وربّه

وذكر ابن أبي الدنيا هذا الأثر مرفوعاً ، قال جعفر بن سليمان : سمعت
مالكاً يقول : إتقوا السحارة فانها تسحر قلوب العلماء . - يعنى الدنيا - وذكر ابن
أبى الدنيا بإسناده الى الحسن البصرى أنه كتب الى عمر بن عبد العزيز : أما بعد ،
فان الدنيا دار ظن ليست بدار إقامة ، وإنما أنزل آدم اليها عقوبة ، فاحذرّها
يا أمير المؤمنين ، فان الزاد منها تركها ، والغنى منها فقرها ، لها فى كل حين فتيل ،
تذل من أعزها ، وتفقر من جمعها ، هى كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حنّفه ، فكن
فيها كالمدأوى جراحته ، يحتسى قليلاً ، مخافة ما يكره طويلاً ، ويصبر على شدة
الدواء ، مخافة طول البلاء ، فاحذر هذه الدار الغرارة ، الخيالة الخداعة ، التى زينت
بخدمتها ، وفتنت بغرورها ، وختلت بآمالها ، وتشرفت لخطاياها ، فاصبحت كالعروس
المجلىة (١) فالعيون اليها ناظرة ، والقلوب عليها والهة ، والنفوس لها عاشقة ، وهى
لا تزواجها كلهم قائلة ، فلا الباقى بالماضى معتبر ، ولا الآخر على الأول مزدجر ،
ولا العارف بالله عز وجل حين أخبر عنها مذكر ، فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته
فاغتر وطفى ونسى المعاد ، فشغل فيها لبه حتى زالت عنها قدمه ، فغطمت ندامته ،
وكثرت حسرته ، فخرج بغير زاد ، وقدم على غير مهاد ، فاحذرّها يا أمير المؤمنين ،
وكن أسراً ما يكون فيها أحذر ماتكون لها ، فان صاحب الدنيا كلما اطمأن منها
الى سرور ، أشخصه الى مكروه ، قد وصل الرخاء منها بالبلاء ، وجعل البقاء فيها
الى فناء ، فسرورها مشوب بالحزن ، لا يرجع منها ماولى فادبر ، ولا يدبر ما هو آت

فينتظر ، أمانها كاذبة ، وآمالها باطلة ، وصفوها كدر ، وعيشها نكد ، وابن آدم فيها على خطر ، ولقد عرضت على نبيك محمد ﷺ بمفاتيحها وخزائنها ، فأبى أن يقبلها ، كره أن يحب ما أبغض خالقه ، أو يرفع ما وضع مليكه ، فزواها عن الصالحين اختباراً ، وبسطها لاعدائه اغتراراً . جاءت الرواية أنه تبارك وتعالى قال لموسى عليه السلام : (إذا رأيت الغنا مقبلاً فقل ذنب عجلت عقوبته ، وإذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحبا بشعار الصالحين)

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً *

وفي آخر الأصل الذي طبعنا عليه ما يأتى بخط المؤلف : —
 علقتها مؤلفها محمد بن محمد بن محمد المنبجى الحنبلى كان الله له وسامحه بمنه وكرمه
 من نسخة أصله في رجب الفرد سنة سبع وسبعين وسبعمائة أحسن الله عاقبتها
 (تم)

